ماهو أعز من الموت وهو الايمان لرجعوا عنه وارتدوا إلى الكفر استجابه لدعوه الأحزاب ومن لايهمه دينه فما أظنه بالحريص على بيته ثم أن الله سبحانه وتعالى بين كيف تكون منهم المسارعة إلى الإجابة بقوله (وما تلبثوا بها الا يسيرا) أى أنهم جيئها طلب منهم الترك فعلوه سريعاً دون إبطاء وقيل أن معنى ذلك وما أقاموا بالمدينة يسيرا بعد أن ارتدوا كفاراً الازمنا يسيرا حيث إن الله .

ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالى ماكانوا قد اعطوه من العهود (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) وفى بعض من أخذ عليه العهد آراء لعل أوفقها مانقله صاحب زادالسير بقوله (إنه لما نزل بها المسلمين يوم أحد مانزل عاهد الله وصعب بن قشير وقتيبه ابن حاطب لانولى دبراقط فلما كان يوم الاحزاب فاقفا قاله الواقدى واختاره أبو سعيد الدمشقى وهو اليق [(١)] .

وكان قد ذكر قبلة رايين أحدهما أنها نزلت فيمن بايع الرسول ﷺ يوم العقبه والثانى أنها نزلت فى أناس تخلفوا عن بدر فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة قالوا : لئن شهدنا قتالا لنقاتلن .

لكن لما كان الحديث سابقا عن المنافقين كان الأليق بالقبول من الآراء هو ماذكر أولا وإن كان أولئك النفر قد أعطى الله العهد فإنه كان من الواجب عليهم أن يوفوا بما عاهدوا عليه الله ؟ وكيف لا وكل عهد كان بين الانسان وربه سيسأل عنه العبد يوم أن يقف بين يدى خالقه فيقال له لم لما توفى بالعهد ألم تعلم أن عهد الله كان سؤلا .

وحينما يفر من فرو يعتذر من اعتذر لحسم القرآن الكريم الموقف

---

(١) زاد السير ٣٢٣/٦

بالنظر إليهم بقوله جل وعلا (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا).

هكذا بين الله سبحانه وتعالى الحقيقة لأولئكم الفارين ، لم كل هذا أهو خوف من أن يلحقكم قتل أو موت ؟ إذا كان هذا هو هدفكم وغايتكم فقد ضاع الهدف . إن الموت حق . وكل إنسان لابد له من نهايه . فإما أن يقتل أو يموت حتف أنفه ، سبق بذلك القضاء ، وصدقته الإيام ، فهل من باق من الأولين الاجداد والآباء . لقد سبقوا وانقضت أيامهم بأحد الأمرين ، وإذا كانت النهاية محتومة والموت لابد منه فليتخذ الإنسان لنفسه الميتة التى يرضاها والتى يرضى بها عنه الله تعالى ورسوله — ﷺ — وليس هناك ميته أكرم من الإستشهاد فى سبيل الله . ثم إن القرآن الكريم يرخى لهم العنان ويظهر لهم ما يمكن أن يكون حتى لوصح مافهموه ، فيقول لهم : ماذا تنتظرون بعد الفرار ؟ هل هناك خلود أو بقاء بلا حدود كلا أنها أوقات معدودة وأنفاس محسوبة ثم لابد بعد ذلك من ملاقاة ما كنتم تكرهون . فلينظر العاقل كم بقى من الوقت أنه وقت قليل . فما دام بعده الموت أو القتل فلا شك أنه قليل .

جيب إن كل آت قريب وكذلك التمتع إذا يتم فهو يتمتع لوقت محدود (قل متاع الدنيا قليل والآخره خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا)[1] .

وحينما يلزمهم الحق سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة التى لاتنكر يعود القرآن مره ثانية ليسألهم سؤال أنكار عما هم فيه فيقول جل شأنه (قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن اراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)[2] أنه لا أجد لهم بمجير وليس لهم

---

(١) النساء فى الآية ٧٧
(٢) الاحزاب الآية ١٧

من نصير فاذا أراد الله بهم رحمه من نصراً أو عافيه أو سلامه فمن ذا الذى يقدر على منع ما أراد الله الامر لا يحتاج إلى الجواب ، فالكل يعترف بأنه إذا أراد الله أمر فإنما يقول له كن فيكون والحال فى السراء والضراء واحد فمشيئة الله نافذه وأمره واقع وعندئذ على من لا يلتزمون بالمنهج الالهى أن يبحثوا عن قريب يأوون إليه ، وعن نصير يلوذون به ولكن ولكن أتى لهم بذلك وقد قال الله تعالى [ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً] .

ويسير القرآن فى فضح أولئك الاقوام الذين خلت قلوبهم من الإيمان فكان منهم ما ذكره المولى جل وعلا فى قوله : [قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا] .

إنهم نفر من الناس اختلفت الروايات فى تحديد أشخاصهم فقد روى لنا صاحب زاد المسير فى سبب نزول هذه الآيه قولين :

الأول أن رجلا انصرف من عند رسول الله ﷺ يوم الاحزاب فوجد اخاه لامه وأبيه وعنده شواء وقال له أنت ها هنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف والسهام ؟ فقال هلم إلى فقد أحيط بك وبصاحبك والذى يحلف به لا يستقيها أحد ابرا فقلت له كذبت والذى يحلف به أما والله لا خبرن رسول الله ﷺ بأمرك .

فذهب إلى رسول الله ﷺ لنحده ، فوجدة قد نزل جبريل بهذه الآية إلى قوله (يسرا) هذا قول ابن زيد[1] .

والثانى أن عبدالله بن أبى . وشعب بن تشير والمنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة كانوا إذا جاءهم منافق قالوا له ويحك ، إجلس قد

---

(١) ذكره الطبرى جـ٢١ /١٩٦ والسيوطى فى الدر المنثور جـ٥ صـ١٨

تخرج ويكتبون بذلك إلى أحوانهم فى العسكر أن ائتو بالمدينة فانا ننتظركم — يبطونهم عن القتال — وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم فاذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة ، فنزلت هذه الآية قاله ابن السائب[1] .

ولما تعددت الروايات فى سبب النزول فقد إختلفت الاراء والنقول فى تحديد القائلين لأخوانهم (هلم الينا) فمن قال أنهم اليهود ، دعوا اخوانهم المنافقين ، ، وآخر يرى أن الأخ الذى سبق الحديث عنه مع أخيه فى سبب النزول وثالث يذهب اليهود كانوا يطلبون من المسلمين أن ينقضوا عن رسول الله ﷺ ويتركوه فى الخندق يلاقى الأحزاب واحده ولئن كانت أخوه الكفر والنفاق والمصلحة قد جمعت بين اليهود والمنافقين فأن أخوة الوطن والمكان جمعت بين الكسل حتى يمكن أن يحمل القول القائل بأن اليهود يطلبون من المسلمين التخلى عن القتال والعودة إلى الديار .

ثم أن هؤلاء المعوقين قد ذكر الله من أوصافهم مايفضحهم ويكشف بجلاء اسرارهم فهم بعدا الذى قالوه لا يغشون الحرب ، ولا يحضرون القتال إلا قليلا نعم أنهم قليل — قتال قليل أو زمن قليل ، كل ذلك جائز حملهم عليه سوء خلقهم المنافقين فهم يقاتلون رياء ولذلك وصف الله عملهم بالقليل لانه لم يكن خالصا لوجهه ولو كان ذلك القتال لله خالصاً لكان معه كثيراً[2] .

وعندما تختم الآية السابقة لقوله تعالى (ولا يأتون البأس إلا قليلا ، تأتى الآية التاليـــة لتزيدهم أوصافاً — لكنها أوصافاً كانوا أحق بها

---

(١) زاد المسير ٦/٣٦٤

(٢) المصدر السابق ، وأنظر الفخر الرازى جـ ٢٥ /٢ والألوسى جـ ٢١ صـ ١٦٣

وأهلها . فيقول الله تعالى (أشحة عليكم فإذا الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليك من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) .

لقد وصفهم الله بالشح والجبن فأى شيء يا ترى كان شحهم ؟ لقد تعددت الاراء فى ذلك . يقول الالوسى . أى بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة كما ذكروه عن مجاهد ، وقيل بأنفسهم ، وقيل بالغنيمة عن القسم وقيل بكل ما فيه مصلحة لهم وصوبه أبو حيان[1] .

ويرى الأمام الرازى أن اشح كان بالمال والولد ثم هل سجل ذلك فيقول بعد ما ذكر الآية (أشاره إلى جبنهم ونهاية روعهم واعلم أن البخل شبه الجبن فلما ذكر البخل ذكر سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر فلا يرجون الغنيمة ، فيقول هذا انفاق لا يدل له بتوقف وأما الشجاع فقد ينفعه النصر والاغتنام فيهون عليه أخراج المال فى القتال طمعاً بما هو ضعاف ذلك وأما النفس والبدن فكذلك ا هـ[2] .

ذلكم شأنهم عندما يطلب منهم التقدم أو يعرض عليهم القتال فهل تلك الحالة لازمة أو أنهم يلبسون لكل حال لبوسها ، نعم من أولئكم الأقوام الذين يقلون عند الفزع ويكثرون عن الطمع وإينام .

وقد بخلوا بما لهم وانفسهم عندما جد الجد ثم تراهم بعد قليل كما

(١) الالوسى جـ١ ، جـ٢٠ صـ١٦٤

(٢) الرازى جـ٢٥ صـ٢٠١

صورهم القرآن الكريم (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنه حداد أشحة على الخير)

أى غلبوكم بالالسنة وأدركم بكلامهم ! يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من القيمة وكانوا من قبل يرضون من القسيمه بالايات ومعنى اشحه على الخير) قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه ، قليلوا الخير فى الحالين كثير الشر فى الوقتين فى الأول يبخلون وفى الثانى كذلك[1] .

ويختم الله سبحانه وتعالى ببيان السبب الذى حملهم على ما هم فيه إنه عدم الإيمان فهؤلاء الأقوام أعنى المنافقين وإن نطقت السنتهم بالشهادة فالله أعلم بالسرائر لذلك حكم عليهم بعدم الايمان الحقيقى وإن كان هناك إيمان ظاهرى لا يسمن ولا يغنى من جوع فأحبط الله ذلك العمل الذى لم يقصد به وجهه «وكان ذلك على الله يسيرا) .

وتظل الآيات ناطقة بعظم جهلهم وشدة خوفهم فيقول سبحانه وتعالى « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يات الأحزاب ودوالو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائهم ولو كانوا فيهم ما قاتلوا إلا قليلا »

وهكذا يبلغ بهم الخوف والجبن مبلغهما فهاهم أولاء الأحزاب قد أنصرفوا عن المدينة وتركوا أماكنهم التى كانوا فيها .

ومن كان ذا بصر أوعنده شىء من العقل لا بد أن يعلم أن الخطر قد زال لكن أولئك المنافقين وأصحابهم مع ذلك يحملهم جبنهم على عدم تصديق الواقع فهم يظنون الأحزاب ما زالت تحيط بالمدينه ويرون أن

---

(١) أنظر المرجع السابق

الخطر ما زال يحيط بهم خطر على ما بهم أنصراف الأحزاب أو تفعلوة لم يكن ذلك دافعا لهم إلى الاطمئنان .

لقد ملأ الخوف قلوبهم فهم يتصورن احتمالا غير وارد . ويضعون أنفسهم فى المكان الذى يحسبونه أنهم ربما ورد على أذهانهم بعد أن علموا بذلك الحصار وأنصراف الأحزاب أحتمال الأحزاب مرة ثانية .

لذلك فهم يتمنون لوحصل ذلك أن لا يكونوا من سكان المدينة بل يكونون قد تفرقوا فى البوادى وحينئذ يسألون عن الأنباء . وهم يبعدون عن أماكن القتال يسألون أى قادم من ناحية المدينة عما حصل لمحمد ﷺ وصحبة سؤال شمانه كايسألون عن أحوال الأحزاب لعلهم يسيمعون مايسرهم .

ومن المعلوم أن وجودهم مع المسلمين ليس فيه من الغنائم إلا القليل مصداقا لقوله تعالى « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » وما رموا بالحجاره مع أنهم لا يقاتلون عن أخلاص ونية .

يقول الامام الرازى فى تفسير هذه الآية

« أى من غاية الجبن عن ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع أنهم مع حضورهم كانهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال الله تعالى (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا »[1]

وكأنى بالأمام يرى أن الآية وصف لهم قبل مجيء الأحزاب وبعد رجيلهم إن البعض يرى أن قوله تعالى : « وإن يأت الأحزاب « إنما هو

---

(١) الفخر الرازى جـ ٢٥ ص ٢٠٢

على سبيل العرض فالجبن مركوز فى قلوب المنافقين دائماً ، من قبل ومن بعد وصدق الله العظيم « يحسبون كل صيحة عليهم »[1] .

وعندما يتم الحديث عن المنافقين، يلتفت النظم الكريم إلى اضدادهم إنهم المؤمنون المخلصون الذى صدقوا ما عاهدوا الله عليه فسمع الآيات وهى توجه إليهم ذلك القول الجميل « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

يقول الإمام ابن كثير : « هذه الآية الكريمة أصل فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الله تعالى الناس بالتأسى برسول الله ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومراقبته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عزوجل: صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

ولهذا قال الله للذين تقلقوا وتضجروا تزلزلوا واضطربوا فى أمرهن يوم الأحزاب ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه ، أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ولهذا قال الله تعالى : «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[2] .

وبينما نرى الإمام ابن كثير يقول تلك المقال ، نجد الإمام القرطبى يخصص الخطاب فى الآية بجعله عتاباً لمن تخلف عن القتال مع رسول الله ﷺ يوم الأحزاب فيقول : « هذا عتاب للمتخلفين عن القتال ، أى كان لهم قدوة فى النبى ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق[3] ، فاستطرد رحمه الله فى بيان معنى الآية ، فنراه يقول عن تفسير

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤

(٢) ابن كثير ص ٣ ، ٤ ، ٢٠٧

(٣) القرطبى حـ ١٤/١٠٥

لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر » قال سعيد بن جبير المعنى لمن كان يرجوا لقاء الله بإيمانه ويصدق باليوم الآخر الذى فيه جزاء الأعمال وقيل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر ويكمل ذلك الحديث فى قوله تعالى : « وذكر الله كثيراً » خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه »[1] .

ولما بين الله حال المنافقين من حال المؤمنين فقال : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

ويشرح زاد المسير المراد من قوله تعالى : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» فيقول «وفى ذلك الوعد قولان فى أحدهما أنه قوله: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنه ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم »[2] فلما عاينوا البلاء يومئذ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله قاله ابن عباس وقتاده فى الآخرين .

والثانى : إن رسول الله ﷺ وعدهم النصر والظهور على مدائن كسرى وقصور الحيرة، ذكره الماوردى وغيره[2].

ويلفت الإمام الرازى إلى ما فيه الآية من أسرار فيقول إن «ما وعدنا الله ورسوله» جاء فى مقابله قول المنافقين سابقاً « ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً» وقولهم : « وصدق الله ورسوله» لفين إشارة إلى ماوقع فأنهم كانوا يصدقون صدق الله قبل الوقوع وإنما هو بشارة وهو أنهم قالوا «هذا ماوعدنا الله » وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد به ففتح الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس « مازادهم الا إيماناً وتسليما » بوقوعه وتسليما عند وجوده »[3] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١

(٣) الفخر الرازى حـ٢٥/٢٠٣

وإذا كان المنافقون قد عاهدو الله لا يولون الأدبار ثم أختلفوا فأن المؤمنين على العكس من ذلك ، لقد وفوا بما عاهدوا مازالوا على العهد يقول الله تعالى : «من المؤمنين رجال صدقوا ماعدهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» ، وفى تبين من نزلت فيه هذه الآية قولان :

الأول : أنها نزلت فى أنس بن النضر وقد تخلف عن غزوة «بدر» فعاهد الله أن شهد مشهد آخر لدين الله ما يفعل : فلما كان يوم أحد وفى بما عاهد الله عليه .

والثانى : أنها نزلت فى طلحه بن عبد الله وقد حمل بعض المفسرين صدر الآية أى الذين وصفهم الله بالصدق منه فى العهد فى أنس رضى الله عنه ، أما قوله تعالى: «فمنهم من قضى نحبه» فقد نزلت فى طلحه رضى الله عنه ، وقد فسر النحب ثلاث تفسيرات .

الأول : أنه الأجل والمعنى عليه فمنهم من قضى أجله .

الثانى : العهد والمعنى عليه فيهم من وفى .

الثالث : النذر وعليه يكون المعنى فمنهم من وفى نذره[٢] .

ثم بين الله عاقبة الفريقين فيقول : «ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما» ،

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ذلك نصيب المؤمنين أما المنافقون فالأمر فيهم راجع إليه سبحانه وتعالى ، وقد وصف نفسه فى ختام الآية بالمغفرة والرحمة ، لذلك فما زال باب الجد مفتوحاً أمامهم إن تابوا عن النفاق تاب الله عليهم وإن هم أصروا على ماهم عليه فالعذاب سينتظرهم .

---

(١) انظر زاد الميسر حـ ٦ ص ٢٧١

وتختم الآيات الحديث عن الغزوه فتذكر تلك النهاية اليقظة للمسلمين والهزيمة التى لم يتوقعها أعداء الله من الأحزاب لقد بيتو أمرهم وجمعوا جيوشهم قاصدين المدينة المنورة يريدون أن يستأصلوا الإسلام منها ، وما علموا أن لله جنوداً لا ترى وأن الله وعد رسوله بالنصر ووعد الله حق وإذا كان الأحزاب يعتقدون أن صنيعهم وهدفهم هو الخرب وماهو بخرقان الله يرد عليهم بقوله: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً».

صدق الله العظيم ؟

الفلسفة الإسلامية
مدخل للدراسة والبحث

بقلم

دكتور

عبد الرحمن محمد المراكبي

(٥ ـ حولية أصول الدين بالمنوفية)

تمهيد

يتساءل الدارسون للفلسفة — لا سيما في هذه الأيام التي ظهرت فيها التيارات الإسلامية على الساحة متحركة فاعلة، ونشطت فيها الاتجاهات السلفية تريد أن تعود بالأمة إلى عهد سلفها الأول، وبعد أن تفرقت بهم الطرق إلى غير طريق الله. وتشعبت بهم السبل إلى غير سبيل المؤمنين، تحاول قدر إمكانها إبعاد الشباب عن دراسة الفلسفة، وما يتصل بها من علوم المنطق، والكلام، والتصوف وغيرها، لما لذلك من خطر على الإسلام والمسلمين — يتساءل الطلاب، ويتساءل الشباب عموما، ويتساءل كثير من الناس عن قيمة هذا النوع من الدراسة وفائدته، ووجه الحاجة إليه؟

كما يتساءل هؤلاء وأولئك عن وجه علاقة الفلسفة بالإسلام:

هل هي متفقة معه، أم مخالفة له؟

وإذا كانت متفقة مع الإسلام — ولذلك وصفت بأنها إسلامية — فلماذا كان الهجوم عليها، ومحاربتها، والفتوى بحرمة الاشتغال بها من أئمة المسلمين وعلمائهم؟

وإذا كانت مخالفة للإسلام فلماذا وصفت بأنها إسلامية، ونسبت إلى الإسلام؟

ولماذا نهتم بدراستها في جامعاتنا ومعاهدنا الإسلامية، لا سيما ما كان متخصصاً منها لدراسة العلوم الدينية؟

وإذا كانت متفقة مع الإسلام - كما يقال - في المصدر، والموضوع،

والهدف والغاية، وغير متفقة معه في بعض نتائجها، أو حتى على فرض الاتفاق معه مطلقاً، أفلا نجد في الإسلام مندوحة عنها، وغنية به عما جاء فيها؟.

ويتساءل البعض: هل ثم فلسفة إسلامية؟ أم أنها بالأحرى فلسفة يونانية كتبت باللغة العربية، وأرادها المشتغلون بها ديناً وعقيدة للناس[1]؟.

وهذه الأسئلة وغيرها كثيراً ما تتردد على ألسنة الدارسين للفلسفة عموماً وللفلسفة الإسلامية على وجه الخصوص، وترد مثل هذه الأسئلة على خواطر البعض منهم وإن لم يفصحوا عنها حياء، وخجلا من القائمين على تدريسها والاشتغال بها[2].

= والحقيقة: أن «الفلسفة الإسلامية» قد وضعت موضع الشك، والاتهام زمناً طويلا بل كانت — وما تزال — موجة الشك فيها طاغية، والمعركة بين أنصارها وخصومها مستعرة تخبو نارها تارة، ويشتعل ضرامها أخرى حتى يومنا هذا، حيث بدأت الفلسفة تنشط من عقالها بعد أن برأت طعناتها، واندملت جراحها، ووجدت لها أعواناً وأنصاراً من المشتغلين بها وبدأ في المقابل رد الفعل في الاتجاهات السلفية والتيارات الإسلامية قوياً عنيفاً يريد أن يكبل حركتها، بل أن يجتث جذورها، ويقوض دعائمها ويقضي عليها.

---

(١) وسنتناول هذا الموضوع في مبحث مستقل بمشيئة الله تعالى تحت عنوان (الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والتقليد).

(٢) أعددت هـذا البحث يوم أسندت إلي دراسة الفلسفة الإسلامية بجامعة الجزائر المركزية ووجدت الاتجاه المناهض للعلوم الفلسفية والمعادي لدارسين لها، والتساؤلات المتكررة حول حكم دراستها ومشروعية الاشتغال بها.

وبدأت بالفعل بعض الجامعات فى البلاد الإسلامية تغلق أبوابها فى وجه الفلسفة وما يتصل بها من عـــلوم ، وإن كانت ما تزال تدرس فى الحقيقة تحت مسميات أخرى كالتيارات الفكرية ، والمذاهب المعاصرة وغيرها .

ولكن ما تزال أيضاً بعض الجامعات والمعاهد الإسلامية الأخرى تفتح الأبواب على مصاريعها لدراسة الفلسفة عموماً : يونانية، أو إسلامية، أو حديثة ، أو معاصرة ، وما يتصل بها من علوم المنطق ، والكلام ، والتصوف وغيرها بدعوى حرية الفكر والرأى ، وفى ظل سماحة الإسلام الذى لا يضيره الباطل وإن علا زبده ، وكثر رغاؤه .

ووسط هذه المواقف المتعارضة ، والتيارات المتصارعة كانت حيرة الشباب ، وتوقف الدارسين والباحثين بين الإقدام والإحجام .

لهذا كان لا بد لنا من التقديم ، أو التمهيد بهذا المدخل ، ولا بد من الإجابة على هذه التساؤلات قبل الشروع فى دراسة الفلسفة وما يتصل بها ليكون الدارس أو الباحث على بصيرة من أمره ، واقتناع تام بما يتلقاه من علوم ومعارف تتصل بهذا النوع من الدراسة .

وتقتضينا هذه الدراسة أن نستعرض وجهات نظر العلماء ، أو بعضهم فى هذه المسألة الهامة ، ثم نناقش هذه الآراء ، ونعقب بما نراه الحق فى المسألة . وبالله التوفيق .

• • •

١ ـ الفلسفة الاسلامية بين أنصارها وخصومها

كان الرعيل الأول من المسلمين من حول رسول الله ﷺ ، ومن بعده يتجهون جميعاً إلى مصدر دينهم : إلى الكتاب الكريم ،والسنة المطهرة يستقون منهما العقيدة ،والشريعة ، والهداية ، ومبادىء الأخلاق الكريمة، ونظام المجتمع الفاضل .

ثم حدث أن اختلف المسلمون وتفرقوا نتيجة كثير من العوامل الداخلية والخارجية وقام فى رحاب الإسلام ، وفى جو تعاليمه ، وفى مجال الدفاع عن عقيدته ومبادئه ، وفى جو الخلاف السياسى ، والاجتماعى ، والمذهبى كثير من الفرق الإسلامية كالخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والصوفية، وأهل السنة وغيرهم .

وأضحى لكل فريق من هؤلاء فكره ، ومبادؤه ، وأصول منهجه ... وحاول كل فريق أن يدعم أركان مذهبه بالعقل تارة، وبالنص أخرى ، وكانت تثور بين هذه الفرق والمذاهب كثير من المسائل التى كانت محل جدل وخلاف بينهم ، كما كانت تثور بينهم وبين غيرهم من ذوى الديانات والمذاهب الدينية والفكرية الأخرى كثير من القضايا والمشاكل التى حاول بها أعداء الإسلام وخصومه أن يشككوا المسلمين فى دينهم ، وأن يثيروا بها الفتنة بين صفوفهم ، فانتدب بعض علماء المسلمين أنفسهم للدفاع عن الإسلام، وكان من ذلك كثير من المناظرات والجدل ، والمعارك الفكرية والعقلية وكان من جملة ذلك أن اجتمع لدى المسلمين من الأبحاث الفكرية والعقلية ما يمكن أن يكوّن فلسفة خاصة بالمسلمين .

بل أصبح بالفعل علم الكلام — كما يقول «ريتر» — يمثل فلسفة خاصة قائمة بذاتها لها شخصيتها المستقلة، وخصائصها المميزة»[1]. فكانت له مدارسه،

(١) عون : د/ فيصل / علم الكلام ومدارسه/٦٤ ط الحرية الحديثة ١٩٨٢ م .

ومذاهبه ، ومشاكله ، ومناهجه ، ومميزاته ، وخصائصه ، وكانت مدارسه تغص بكثير من المفكرين الأدقاء وتموج بالفكر العميق والدقيق فى كثير من المعضلات .

كل ذلك كانت تغص به الساحة الإسلامية قبل أن تترجم العلوم الفلسفية .

وكل ذلك قد مهـــد بالقطع للفكر الأجنبي الدخيل والفلسفة اليونانية .

فلما جاءت الفلسفة بالبحث العقلى فيما وراء الطبيعة ، وفى الأخلاق ، وفى المعرفة عموماً : فى وسائلها ، ومناهجها ، ونتائجها وجدت فى المسلمين من تلقفها بشغف ونهم ، ووجدت فى بعض الفرق الإسلامية من أمثال المعتزلة من ارتمى فى أحضانها ووجد فيها بغيته وطلبته ، وعوناً له على منازلة أعدائه وخصومه .

وزاد من اشتغال المسلمين بها تشجيع الخلفاء والأمراء على دراستها وتدريسها ومن ثم نفقت سوق الفلسفة وازداد عدد المشتغلين بها .

ووجد علماء المسلمين : من الفقهاء ورجال الحديث ، والتفسير ، وأهل السنة من المتكلمين وغيرهم من المعنيين بعلوم الدين أن لهذا العمل خطره على الإسلام فقاوموا بعنف هذه البدعة التى ارتكس فيها المسلمون سيء بحسن نية ، أو بسوء طوية — ورأوا أن ترك الدين وعلومه ، إلى فلسفة اليونان وعلومهم والاشتغال بها قد يبعد المسلمين عن مصدر دينهم ، فشمروا عن ساعدهم للدفاع عن الدين ، والعمل على هدم بناء الفلسفة ، وتكفير المشتغلين بها .

(أ) موقف علماء المسلمين من الفلسفة :

ظلت حملات التشكيك فى الفلسفة ، والهجوم عليها ، واتهام المشتغلين بها بالتبديع والتكفير ، وظل العداء بين العلماء والفلاسفة مستحكما ، والخصومة قائمة والحرب دائرة حتى جاء الإمام الحجة : « أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ = ١١١١ م) فضرب بمعوله فى بناء الفلسفة ضرباً قوياً حتى كاد أن يأتى عليه من القواعد ، فخفت لذلك صوتها بعد أن علا زمنا طويلا على يد الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وغيرهم وألف الغزالى كتابه « تهافت الفلاسفة » حصر فيه أغلاط الفلاسفة فى نحو عشرين مسألة ، فسفههم فى سبع عشرة مسألة منها ، وكفرهم فى ثلاث ، هى :

١ — قدم العالم .

٢ — وعدم علم الله بالجزئيات .

٣ — وإنكار البعث الجسمانى .

وجاء من بعده « الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) فألف كتابه « مصارعة الفلاسفة » :

ثم جاء من بعده « الرازى : فخر الدين (ت ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) فألف « المحصل » محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، وشرح كتاب الإشارات لابن سينا الذى قال فيه الطوسى : نصير الدين (ت ٦٧٢ هـ — ١٢٧٤ م) إنه قدح وليس بشرح وهو كذلك فعلا ،

وجاء من بعدهم الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨ = ١٣٢٨ م) وابن قيم الجوزية ت (٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م) فى كثير من كتبهما حتى أثخنت الفلسفة بالجراح .

وإذا كان هؤلاء قد كانوا فى تقدم للفلسفة على علم بها ، ومعرفة

بمواضع الضعف والخطأ فيها ، واتبعوا فى تقدمهم لها منهجاً علمياً برهانيا ، أو جدلياً على الأقل ، فإن غيرهم من الفقهاء أو المحدثين ، أو المفسرين لم يكونوا على علم بما جاء فيها وإنما ردوها وحكموا عليها وعلى المشتغلين بها تبعاً للفريق الأول . ولذلك لم يبينوا لنا علة تحريمها ، وتكفير المشتغلين بها ووجوه الاختلاف بينها وبين ما جاء به الإسلام .

فيقول « أبو عمرو : عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح ت(٦٤٣) هـ فى تحريم المنطق والفلسفة تعليما وتعلماً مايؤديان إليه من الزندقة والضلال :

« إن الفلسفة هى أس السفه ، والإنحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة .. ومن تلبس بها تعليما أو تعلماً قارنه الخزلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأى فن أخزى من فن يعمى صاحبه ، ويظلم قلبه عن نبوة نبينا محمد ﷺ .. أعاذنا الله من الزيغ عن ملته ، وجعلنا من المهتدين الهادين بهديه وسنته .

وأما المنطق : فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه من إباحة الشارع ، ولا استباحة أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالحين .. فقد برأ الله الجميع من معرة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوصابه .

وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس فى الأحكام الشرعية — والحمد لله — إفتقار إلى المنطق أصلا .. ولقد تمت الشريعة وعلومها ، وخاض فى بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ، ولا فلسفة ، ولا فلاسفة .. » .

ثم يقول بعد فتواه فى تحريم المنطق والفلسفة دون أدنى سبب يذكره :

« فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ، ويخرجهم عن المدارس ، ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من أظهر اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف ، أو الإسلام لتخمد نارهم ، وتمحى آثارهم »[1]

ومع تقديرنا لابن الصلاح فى علمه وورعه وتقواه إلا أننا لا نجد فى هذه الفتوى من الحيثيات ما يبررها ، وما ورد منها يدل على عدم علم الرجل بالفلسفة إلا ما سمعه عنها :

١ — فالفلسفة تؤدى — فى نظره — إلى الزيغ عن نبوة نبينا محمد ﷺ وكأن الفلاسفة لا يؤمنون بالنبوة والأنبياء ، ولا بما جاءوا به وهى دعوى عارية عن الدليل[2] .

٢ — المنطق مدخل للشر والاشتغال به لم يبحه الشارع ولا الصحابة ولا التابعون ، ولا الأئمة المجتهدون فقد برأ الله الجميع منه ، والمعروف أنه لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة ،

٣ — استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية

---

(١) ابن الصلاح /الفتاوى/٣٤ ، ٣٥ ط القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .

(٢) وقد كان لبعضهم مؤلفات خاصة وقد ذكر ابن النديم رسالة خاصة فى إثبات النبوة والرسل ، وأخرى فى نقض مسائل الملحدين راجع الفهرست ط القاهرة /٣٦٢ ، وصوان الحكمة طبع لاهور ١٩٣٥ ص ٢٥ .

وقد كان الجميع يؤكدون على حاجة البشر إلى النبوة لأن الفلسفة لا تغنى عنها .

من المنكرات. وليس فيها افتقار إلى المنطق أصلا . . . ونسى أن هناك علماً قائماً على المنطق من أهم العلوم الشرعية وهو علم « أصول الفقه » .

وسنرى فيما يأتى كيف أباح الإمام الغزالى الاشتغال به، والانتفاع بما جاء فيـــه . لأنه مجرد أداة لا يصح الحكم عليه بكفر أو بغيره ، ولا يسوغ لأحد أن يمنع الاشتغال به ، بشرط عدم الغرور بما جاء عن اليونان ، واعتقاد أن جميع ما جاءوا به هو بهذا القدر من الدقة .

٤ — يلحق « ابن الصلاح الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة والمنطق . بالمرتدين عن الدين فيجب أن يعرضوا على السيف أو الإسلام ... والمعروف أن الفلسفة فكر لا عقيدة ، ومذهب لا دين ، وأنهم وإن أخطأوا لا يمكن إلحاقهم بالمرتدين عن الدين .

= ويقول صاحب كتاب مفتاح السعادة : « المولى أحمد : المعروف بطاش كبرى زادة (ت ٩٦٢هـ = ١٥٥٤م) :

« إن كل ما خالف الشرع فهو مذموم سيما طائفة سموا أنفسهم [حكماء الإسلام] عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال . وسموها [الحكمة] وربما استجهلوا من عرى منها ، وهم أعداء الله ، وأعداء أنبيائه ورسله ، والمحرفون كلم الشريعة عن مواضعه ، ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ قرآناً ، ولا حديثاً ، وإنما يتجملون برسوم الشريعة حذراً من تسلط المسلمين عليهم . وإلا فهم لا يعتقدون شيئاً من أحكام الشرع ، بل يريدون أن يهدموا قواعده وينقضوا عراه عروة عروة » ، ثم يحذر المسلمين منهم ومن الاشتغال بفنهم فيقول :

« فالحذر الحذر منهم ، وإنما الاشتغال بحكمتهم حرام ، وهم أضر على عوام

المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزى أهل الإسلام »[١] .

ونحن مع « زاده » فى أن كل ما خالف الشرع فهو مذموم . وأن ضرر الفلسفة محقق بالنسبة للعامة من الناس . ولكن ليس كل ما جاء فى الفلسفة مخالف للدين ، كما أن الفلاسفة قد حذروا العامة ومن ليس أهلا للفلسفة من الاشتغال بها أو حتى مجرد الاطلاع عليها .

أما ادعاء أنهم لا يعتقدون شيئا من أحكام الشريعة ، وأنهم يريدون هدم قواعد الدين عروة عروة ، وأنهم أعداء الله وأعداء نبيه الخ كل ذلك لأنهم عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال فهى فى الحقيقة دعاوى يعوزها الدليل .

ويقول صاحب كتاب «الدر المختار» علاء الدين محمد بن على الحصكى (ت ١٠٨٨ هـ = ١٦٧٧ م) :

« واعلم أن تعلم العلم يكون فرض عين : وهو بقدر ما يحتاج إليه المسلم لدينه .

وفرض كفاية : وهو مازاد عليه لنفع غيره .

ومندوباً : وهو التبحر فى الفقه ، وعلم القلب .

وحراماً : وهو علم الفلسفة ، والشعبذة ، والتنجيم ، والرمل ، وعلوم الطبائعيين والسحر ، والكهانة »[٢] .

---

(١) زاده : طاش كبرى / مفتاح السعادة ١/٧٦، ٧٧ عن عبد الرازق الشيخ مصطفى / التمهيد /٨٦ط٣ دار النهضة .

(٢) الحصكى : علاء الدين محمد بن على / الدر المختار ١/٣٠ عن التمهيد /٨٦